مدخل

لا مراء في أن الحياة الثقافية ـ بما فيها من الإنجازات الفكرية والأدبية والفنية... قد أخذت تتراجع في المنتصف الثاني للقرن العشرين لصالح الحياة السياسية، ثم الاقتصادية والتقنية، والإيديولوجية الخالصة... ثم أضحت الحياة الاجتماعية ملبية لذلك فتغيرت المفاهيم؛ وتنوعت المصطلحات وتعددت دلالاتها وتبدلت القيم، وربما حكم على القديم منها بالتخلف.. أو الانحراف، أو القصور أو العجز. ويعدّ مصطلح الوطنية؛ والقومية والمقاومة والجهاد؛ والكفاح... والنكبة والانتفاضة في طليعة المصطلحات التي تعرضت للتغيير بين الناس قديماً وحديثاً، حياة وثقافة؛ أدباً وفناً... ونشير إلى هذه القضايا بوصفها ركائز تمثّل روح الأمة، وشفافية ألقها النفسي في التعبير عن القيم الموروثة ورَصْد دلالات قسم منها. فالجهاد ـ على قيمته وقداسة مكانته في حياة الأمة وثقافتها ـ غدا عبئاً على عدد من أبنائها في ظل التأثير الثقافي السياسي الغربي ـ بل إن حكومات عربية عدّة طفقت تغيّر رؤيتها له، وكذا يتجه التغيير إلى مفاهيم أخرى بما فيها الحق والخير والجمال والعدل والصدق...

وفي ضوء هذا الوعي ندرك أن المفاهيم الثقافية للأمة العربية والإسلامية تقع تحت ضغط التأثر والتأثير المتبادل؛ فتغنى، وتثرى، وتتطور تارة، وتضطرب ويشوبها القلق والضبابية، والانحراف والتراجع إلى الوراء تارات أخرى؛ إن لم نقل إنها ثقافة أخذت تذوى وتتهاوى أمام نظريات الآخر الغربي وقوته التقنية والإعلامية.. وبخاصة ما يتعلق بالتحرر الوطني، ومقاومة العدو الطامع في البلاد والعباد.... أما ما يتعلق بالقطيعة مع الثقافة العربية الإسلامية الموروثة فحدّث عنها ولا حَرَج. فالثقافة العربية الإسلامية ـ اليوم ـ ابتليت بمفهوم الانزياح في القيم الأصيلة والمبادئ الثابتة لصالح فلسفة الثقافة الغربية.

فالغرب جعل الثقافة مظهراً من أهم مظاهر الصراع بين الأمم، وسعى إلى نشر مفاهيمه الفكرية والفلسفية، وطبيعة حياته المادية، وفق قانون (الغالب

والمغلوب)... على اعتبار أن من ملك الثقافة ملك عقول الناس جميعاً قبل عواطفهم... وهذا ما انتهت إليه ثقافة العولمة المستفيدة من قابلية الرضا لدينا، ومن شعورنا بالضعف والتقصير. وهي التي شنت هجوماً واسعاً على كثير من القيم الثقافية النضالية الموروثة التي عززت الوجود، وربطت الكفاح الوطني بالواجب والقيم الدينية؛ بوصفه مبدأ إنسانياً معترفاً به دولياً مثله مثل مبدأ المقاومة السلمية والمسلحة للدفاع عن الذات والوجود...

ولمّا شهد القانون الدولي تطوراً ملحوظاً في فهم دلالة المقاومة ومكوناتها السلبية والإيجابية القائمة على الفعل ورد الفعل وجدنا عدداً من أصحاب الاستعلاء والسيطرة والهيمنة على الشعوب أوطاناً وموارد يشنون الغزوات والحروب للوصول إلى أهدافهم؛ مستفيدين من ضعف الدول، وعدم قدرة قادتها على مواكبة التطورات الحاصلة في الكون. ولذا كانت الحروب والاعتداءات تُشَنُّ باستمرار، وتُخْتَلق الذرائع الخفية والظاهرة لتحقيق تلك الغايات.

وبناء على ما تقدم خصصنا **الفصل الأول** لتناول **فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء** منذ أن كانت غزواً إلى أن غدت كفاحاً تحررياً إنسانياً.. كما تتمثل عند الآباء والأجداد الأوائل على امتداد العصور، وكذا هي عند الأبناء حتى يومنا هذا... دون أن نتغافل عن ذكر فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء في الزمن الواحد بوصفها وجهاً من وجوه الحفاظ على الذات...

ولما كانت مادة البحث في شأن الجهاد متنوعة ومتشعبة الاتجاهات فقد اجتزأنا منها بالأصول الأولى التي بُني عليها مفهوم الجهاد... لأن هذه الأصول تؤكد أنه مفهوم إنساني راقٍ اعتمده العرب في سياق مقاومة كل معتدٍ أثيم على الأرض والشرف. فهو الأسلوب الأنجع والفعّال لرد الطرف الآخر المعتدي مادام أن الأساليب السلمية لم تؤت ثمارها. ولذا كان الجهاد على الأرجح عند العرب والمسلمين دفاعاً عن الذات وكينونة الوجود في القديم... ثم عُدَّ ـ حديثاً ـ الأسلوب الأمثل لتحقيق السيادة وحق تقرير المصير وتحرير الأرض ما جعل علماء الدين يصدرون فتاواهم بشرعية المقاومة والعمليات الاستشهادية... على حين يسعى الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني ـ اليوم ـ إلى دمغ نضال العرب

بالإرهاب، وإدانة كفاحهم بمثل ما يُدين موتهم، رافضاً دعوتهم إلى المقاومة أياً كانت أهدافها مشروعة، ومنطلقاتها مسوغة.

ثم لما كانت الأصول التاريخية الأولى لفكرة الغزو/ الجهاد ذات رؤية كونية وثقافية ثم دينية عقيدية، وذات أشكال كثيرة اخترنا منها ما يلبي غرضنا، وشفعنا ذلك بصورة أدبية وفنية من التراث العربي القديم بوصفها نماذج روحية ومادية تجسد قيمة تفاعل الأدباء آنذاك ـ شعراء وناثرين ـ بأحداث الأمة، وتعبر عنها بشفافية رفيعة ما زلنا نستلهم دلالتها حتى الساعة... وأردنا لهذه النماذج المختارة أن تستوعب تعدد الرؤى الفكرية قبل الأدبية والفنية على اعتبار أن الأدب يعدّ وثيقة تاريخية مساعدة للوثيقة التاريخية الزمانية والمكانية...

لهذا كله نرى أن من يتأمل الوجود التاريخي والإنساني والكوني يدرك ضخامة أحداث الدورة الزمانية التي لحقت بهذا الوجود من خلال مفهوم الصراع حول فكرة الحياة والموت.. وفي ضوء تأمل هذا الصراع الوجودي يرى المرء أن المخلوقات أياً كان نوعها تحقق ذاتها والدفاع عنها بحركة تلقائية داخلية لإقامة توازنها الوجودي في إطار نظامها الخاص. وهذا التصور هو الذي فرض علينا أن نتحدث في **الفصل الثاني** عن (**المقاومة الفكر والجدوى**) في إطارها الفكري؛ والاجتماعي، وتطور الحياة ذاتها وفق منهج المنطق التاريخي المعانق لمبدأ التحليل البعيد عن التعبير الإنشائي.

وعليه نجد أن هناك قواسم مشتركة في الحياة والطبيعة تؤكد وجود المقاومة للدفاع عن الذات والوسط الذي ولدت فيه أو نشأت أو تحولت إليه. فعالم النبات يجدد ذاته في ضوء عملية الإنتاش والإنبات مع الطبيعة الجامدة والمتحركة دون أن يقصد إلى أذية الآخر.. في الوقت الذي نجد فيه أن بعض النباتات لا تقوم حياتها إلا على أساس التغلب على الآخر وتدمير حياته.

أما عالم الحيوان ـ وبما يستند إليه وجوده الفطري الغريزي ـ فإن حالة التوازن تعتمد على مبدأ صراع الأقوى، علماً أن بعض الحيوان لا يلجأ إلى مواجهة بني جنسه إلا في حال تهديدهم لوجوده.. فالحيوان المعتدى عليه ـ وإن كان الأضعف ـ لا يمكنه أن يسلّم بالموت المحتوم، فيندفع فطرة وغريزة إلى

فعل المقاومة للدفاع عن وجوده؛ ما يعني أن المقاومة، أو الممانعة، بما فيها القتال المادي إنما هي في طبيعتها الأصلية فعل طبيعي مقاوم للدفاع عن الحياة في السلم والحرب؛ وفي إطار قانون القوة الطبيعي ومبدأ الفعل ورد الفعل.

ولهذا فإن مبدأ المقاومة لدى الإنسان يأخذ اتجاهات شتى في طبيعته التي تستند إلى القوة المادية والقوة المعنوية الروحية والمعرفية، علماً بأن فلسفة مقاومة القوة المادية المسلحة لدى بعض الأجناس البشرية تتخذ مفاهيم الاندفاع العشوائي أو التفسير الموجه، أو الخاطئ الذي يجعل أصحابه يحطمون كل نمط من الأنماط الحضارية والإنسانية لغلبة الخشونة عليها، أو لغلبة البداوة غير المتحضرة كما انتهى إليه ابن خلدون (732 ـ 808هـ /1332 ـ 1406م) في حديثه عن أعمار الدول. فابن خلدون أبرز لنا عناصر قيّمة في الغزوات والحروب حين أثار الذهن على مقاومة العبث الفكري العقلي الذي ينشأ في بيئة ما، ما يجعله خطراً على المجتمع بأكمله... ويتساوى فيه الخطر الخارجي والخطر الداخلي، ولابد من مقاومة كليهما.

ولما كانت القضية الفلسطينية قضية العرب الأولى ولما مثلت انتفاضة الأقصى حالة نوعية في الحياة العربية فقد حاول **الفصل الثالث** من كتابنا ـ هذا ـ إثبات ماهية الانتفاضة / المقاومة الفلسطينية؛ لكونها غدت طقساً يتجدد مادام الاحتلال قائماً للأرض والحياة والوجود ... وفي إطار التجربة التاريخية، واستناداً إلى المبادئ الدينية والإنسانية والشرائع الدولية ومبادئ الحق الطبيعي في الوجود ...

وقد وقف هذا الفصل عند أبعادها ونتائجها ... فمن أبعادها أنها أعادت الزمن النضالي العربي كله إلى الواجهة، إذ تجلت فيه صحوة سياسية ونضالية رائعة استندت إلى مفاهيم الشهادة الراقية بوصفها دفاعاً عن الوجود ضد محتل صهيوني غاصب للأرض والحياة ... ما هيأ لها إسقاط مزاعم الكيان الصهيوني حين صور نفسه للعالم بأنه المعتدى عليه، وبأن المقاومة تنشر الإرهاب ضده، ومن حقه ـ كما زعم قادته، ويزعمون دائماً ـ أن يقوم باجراءات أمنية مهما بلغت وحشيتها للدفاع عن نفسه...

ولكن انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس سنة (2004م)

أكدت بما لا يقبل الشك أن دولة الكيان الصهيوني دولة إجرامية تتحايل على القانون الدولي وعلى اتفاقية (جنيف الرابعة) المؤرخة في (1949/8/12م) الخاصة بحماية المدنيين. ومن ثم فهي التي تصنع الإرهاب وتزرع الرعب الذي أثَّر في أبنائها أنفسهم؛ فأخذوا يفكرون بالهجرة المعاكسة بعد أن أصيب كثير منهم بالأمراض والشذوذ، بل شرع بعضهم يقدم على الانتحار ... ولا سيما بعد تراجع التنمية لدى الكيان، وازدياد الفقر، وسقوط مفهوم الأمن القومي (الإسرائيلي) ... واختلال البنية الديمغرافية للسكان حيث أثبتت المرأة الفلسطينية أنها أهم عنصر في معادلة الصراع.

وإذا كانت الانتفاضة / المقاومة قد أصَّلت جملة من مفاهيم إثبات الذات فإن هناك قوى داخلية وخارجية استطاعت إيقافها وإشعال الفتنة بين بعض أبنائها. ولا شيء أدل على هذا من الفتنة المأساة التي حدثت في الاقتتال الدامي بين الأخوة الفلسطينيين (حماس وفتح). وهو اقتتال حدث غير مرة، وأدى إلى انقسام حاد بين المقاومين، كما رأيناه في شهر حزيران (10 – 2007/6/16م)؛ في الوقت الذي كان عليهم أن يقفوا في الذكرى الأربعين لهزيمة (1967/6/5م) يداً واحدة... كان ينبغي عليهم ألا يقعوا في قابلية الفتنة التي خطط لها الصهاينة برعاية الإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة بوش الابن. ولعل ما وقع بين الأخوة الفلسطينيين يعد هزيمة أخرى لا يقل تأثيرها في النفس العربية عن هزيمة حزيران، فالقضية الفلسطينية تكاد تضيع برمتها... وعلى الرغم من هذا الواقع البائس فإننا نرى أن المقاومة ستبقى الطقس المختزن في داخل كل فرد فلسطيني وعربي وسيظل ألقها متأججاً، تراجعها الذاكرة العربية في أزمات الشدة منذ اليبوسيين إلى ثورة البراق ثم انتفاضة الحجارة .... حتى اليوم. إنها المعادل الوجودي للحياة في الرَّدّ على كل حيل الصهاينة وغدرهم ووحشيتهم في قتل الآخر واغتصابهم للأرض ... فالضحية العربية لا تعيش مع المفترس الصهيوني.

وأياً ما يكن الأمر فإننا نسعى إلى تأسيس الوعي بثقافة المقاومة بكل أشكالها المادية والمعنوية، التي نشأت عليها الأمة، على اعتبار أن ثقافة المقاومة استجابة إنسانية تظهر بتجليات متعددة تعبر عن ارتباط الإنسان

بالتاريخ وبالواقع المعيش، والموضوعي فضلاً عن وعيه الكبير لثقافة السلام والمحبة... وهذا ما يعالجه **الفصل الرابع** بعنوان (**ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام**)؛ وأول ما يظهر لنا من تجليات الثقافة الوطنية والقومية والإنسانية أن ثقافة المقاومة تستجيب للتحديات المفروضة على الشعوب والدول. وتستند إلى الإرادة والوعي والصدق والقوة، أي إنها تقف في وجه كل من يستبيح قيم الحق والعدالة ويستهين بالإنسان وحقوقه وكرامته كونها موقفاً نضالياً وأسلوباً دفاعياً عن الذات والوجود والهوية والثقافة. ومن ثم فهي تجسد رسالة الإنسان في تأسيس مبدأ الحق والخير والسّيادة لمحاربة الاغتصاب والاعتداء والقهر والإهانة؛ إنها ثقافة أمة تعبر عن مصالح أبنائها وتطلعاتهم إلى الحياة الأرقى، ولاسيما حين تنفتح على المثاقفة مع الآخر دون أن تصاب بالاستلاب، والاستنساخ والتبعية.... فثقافة السلام توازي ثقافة المقاومة بوجوهها السلمية أو المدنية، ما دامت تحقق الغاية ذاتها؛ وإلا يظل الاحتفاء بمفاهيم الجهاد والنضال والتضحية بالنفس والشهادة حقاً شرعياً وقانونياً لكل حر شريف... وهذا خلاف من سقط في الاستسلام والخنوع وطفق يسخر من المثل العربي المشهور (اطلب الموت توهب لك الحياة) ويرى أنه مدعاة للتندّر، وبخاصة حين أضحى الشهيد والفدائي في زعم عدد من الناس انتحارياً إرهابياً لا يريد إلا قتل الأبرياء.

ولا حرج علينا من القول: إن قوة البدن والعناصر المادية إذا تملكت النفس وانتصرت على حكمة العقل غلب عليها قانون القوة الطبيعي، وهذا الشكل هو الذي قادنا إلى الحديث عن مقومات المقاومة وأركانها في الفصل الثاني، وفيه توصلنا إلى أن المقاومة حاجة ضرورية لإقامة التوازن والتكامل، وبخاصة عندما تكون دفاعاً عن حقوق الإنسان التي انتهكت من قبل أرباب الهيمنة؛ بمثل ما انتهكت حرية الدول؛ وما اتفق عليه في القانون الدولي بسيادة الدول وحق تقرير المصير، من دون تجزئة أو تمييز. ومن ثم كان علينا إبراز ما تقوم به الدول التي تدعي التقدم وحماية حقوق الإنسان من انتهاكات شتى تحت مسميات عدة، فالإدارة الأمريكية ــ مثلاً ــ تبنت مشروع الشرق الأوسط الجديد، وتنادى أربابه إلى الهيمنة على العالم عامة والوطن العربي خاصة.... ولعل

هذا كله فرض علينا إبراز الوعي بالوجود الوطني القومي والدفاع عنه في صميم أشكال المقاومة التي ظهرت في فلسطين ولبنان وغيرهما.

وبناء على ذلك تناولنا عملية السلام في المنطقة؛ ثم أتبعناه بالكلام على مفهوم السلام الاستسلام والفرق بينهما في ضوء ما يجري من أحداث ورؤى تجتاح الأمة العربية، ليستقر الفصل الرابع عند شرح حقيقة (سقوط الأسطورة الصهيونية) على يد المقاومة الوطنية اللبنانية البطلة بقيادة حزب الله.

أما الفصل الخامس بعنوان (المقاومة والتنشئة الوطنية) فقد عُني بكيفية تربية الناشئة لإثبات حق مقاومة الشعوب والدول للعدوان أياً كانت طبيعته ووظيفته... ولابد لكل طفل أن يدرك أن القوة التي يمتلكها إنسان ما أو دولة ما لا تبيح الاعتداء على الآخر بالعنف والقتل والتهجير... أو السرقة والنهب والاغتصاب للمروءة والكرامة والحرية... فالحقوق الفردية والجمعية غير قابلة للتجزئة أو النقصان، أو العبث والسمسرة والبيع... ومن واجب الدول أن تهيئ الثقافة الأصيلة التي تعزز حق الإنسان في الدفاع عن نفسه؛ ومواجهة أي نمط من الإرهاب أو العنف الذي يقع عليه.... وأن تنشئ أبناءها على وعي ثقافة المقاومة، في إطار تنمية شاملة ومستدامة تربط بين حقوق الإنسان والواجبات المطلوبة منه تجاه سيادة الدولة ومواجهتها للدول المعتدية أو العصابات الإرهابية التي تنفلت من عقالها.

إن قيمة التربية المبكرة للأطفال والشبيبة وإعدادهم الإعداد العلمي الموضوعي الوطني يحقق المواطنة الحقيقية التي تجذّر فكرة الهوية والانتماء والدفاع عنهما... ويتكامل في ذلك كل وسائل التربية من الأدب إلى الثقافة والإعلام و..

ولذلك كله اعتمدنا المنهج التاريخي الموضوعي في معالجة موضوعاتنا وذهبنا إلى قراءة تاريخ وواقع ومستقبل المقاومة في صميم ما مَرَّت به الأمة العربية والإسلامية؛ وإن أشرنا ـ بإيجاز ـ إلى أمم غيرها ـ لتأصيل فهم دقيق للمقاومة، مصطلحاً ونشأة؛ وتطوراً في دلالاته النظرية والعملية... أي إن المنهج هو الذي فرض علينا أن نبدأ بالفَرْش التاريخي لنشأة ثقافة المقاومة بوصفها حاجة إنسانية لتحرير الذات من القهر والظلم؛ والاستعباد والهيمنة بالقوة...

فتوقفنا عند عدد من المفاهيم ثم انتقلنا إلى فلسفة المقاومة مصطلحاً وجدوىً؛ مبرزين ماهية المصطلح وطبيعته ووظائفه الوجودية والحياتية....

وكنا في ذلك كله نحلل الحدث؛ طبيعة ووظيفة وغاية، داخلياً وخارجياً، ساعين إلى تحقيق الوعي بما يحيط بنا، مستشرفين كيفية بناء الرؤى الشاملة والصادقة لبناء مستقبل أمتنا لتغدو سيدة كريمة موحدة. وهذا كله دفعنا إلى بيان أشكال المقاومة العربية المعاصرة التي تصدت لمشاريع الهيمنة التي تقودها الدوائر الصهيو/أمريكية.

ولست أشك لحظة واحدة في حاجة المجتمع العربي إلى ثقافة المقاومة ليس بوصفها نمطاً من الفكر الإنساني الثابت وإنما بوصفها أسلوب حياة يجسد قيم النبل الخلقي الإنساني التي ترفض العنف والعدوان، والغَصْب والإكراه؛ والحقد والفوضى والجنون... ما يعني أن ثقافة المقاومة ميزان عقلي للتوازن والتطور؛ ومعرفة الحق والخير والجمال...

وإذا كنا قد أفدنا من الدراسات الكثيرة التي تناولت موضوع المقاومة، فإنها لم تقل الكلمة الأخيرة فيه؛ ما يشي بأن محاولتنا ستنضم إلى تلك الدراسات لتقول كلمتها، ولعلها تحقق الهدف المرجو لها، وإذا وقعنا في الزيغ أو النقص، فلنا من إرشاداتك ـ أخي القارئ ـ ما يقوّم ذلك.

والله من وراء القصد

حسين جمعة

obeikandi.com